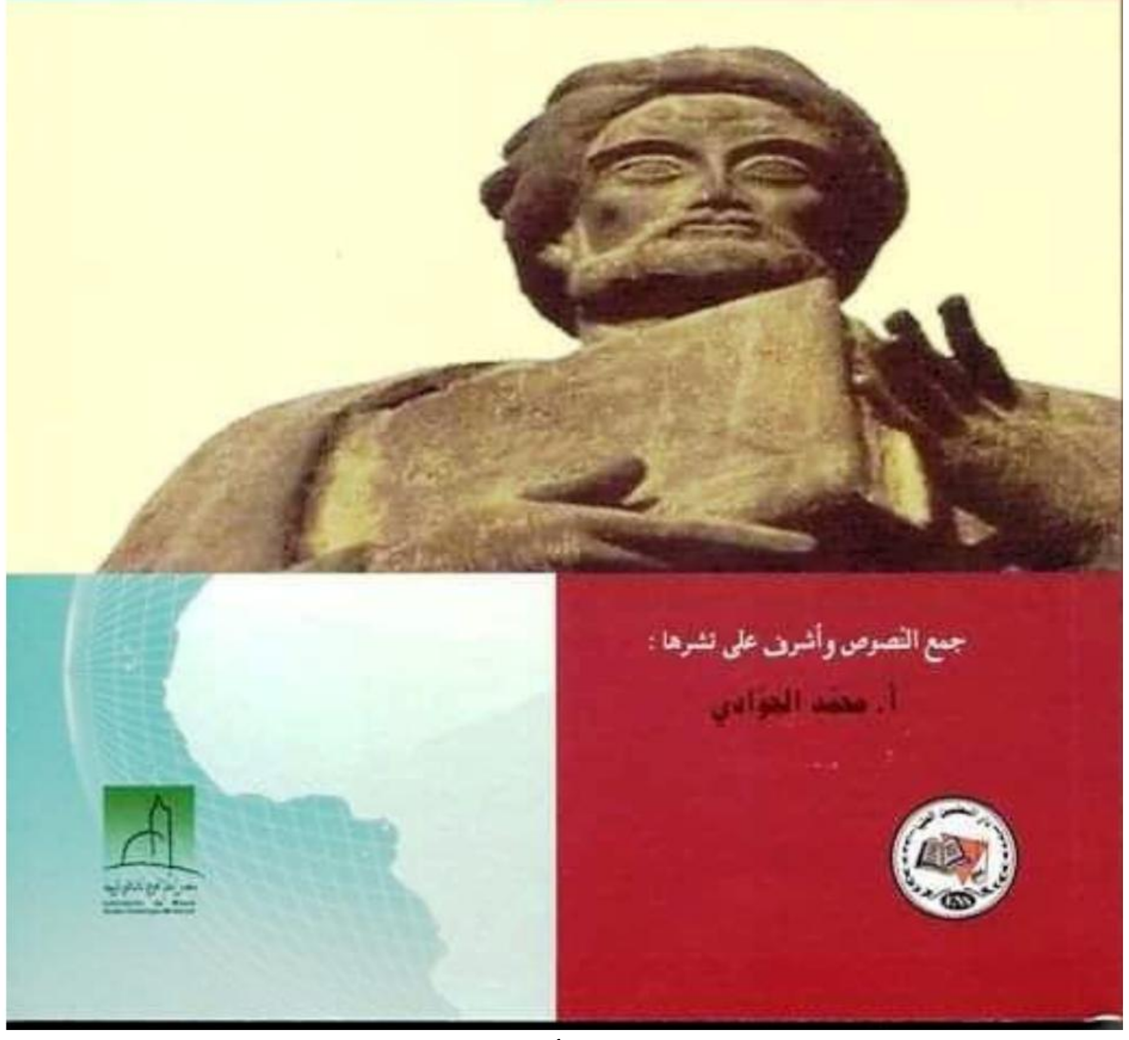

IPELSHT
المعهد التحضيري للدراسات الأدبية
والعلوم الإنسانية بتونس- جامعة تونس
أشغال النّدوة العلميّة حول :
"البيوغرافيا بين المقاربة التّاريخيّة
والخطاب الأدبي"
21 و22 أفريل 2017


جمع النصوص وأشرف على نشرها :
أ. محمد الجوّادي

الفهرس

الطيب رضوان (1869- 1954): بيوغرافيا لا نمطيّة.

فوزي السباعي
كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة بصفاقس
مخبر LERIC

نروم في هذه الدراسة كتابة بيوغرافيا فرديّة تسلّط الضوء على تفرّد الشخصيّة ومسارها، وهي مقاربة مختلفة جوهريّا عن ما يعرف بالبيوغرافيا النمطيّة Biographie modale، التي لا تهتمّ بحياة الشخص المنفرد وإنّما بالشخص الذي تتكثّف فيه كلّ خصائص المجموعة، أي "الأنموذج المثال" الممثّل لمجموعة أوسع.[1] وتبدو البيوغرافيا النمطيّة، حسب جيوفاني ليفي، متماثلة نسبيّا مع البروسوبوغرافيا التي لا يمكن اعتبارها بيوغرافيا حقيقيّة، أو هي مجرّد مقاربة بيوغرافيّة للتاريخ حسب المؤرّخ روني بيلورجاي.[2]

وتمثّل البيوغرافيا النمطيّة في نفس الوقت مرحلة تاريخيّة من مراحل الكتابة البيوغرافيّة تتطابق مع كسوف البيوغرافيا في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بل تتواصل أبعد من ذلك مع مدرسة الحوليّات التي ظلت وفيّة لهذا التقليد حتّى بعد الإقلاع البيوغرافي الذي بدأ في الثمانينات. وتعتبر البيوغرافيا النمطيّة المقاربة الأكثر رواجا في فرنسا في الوقت الحالي إلى حدّ أنّها أصبحت ميزة ملازمة للمدرسة الفرنسيّة مقارنة بالمدرسة الانكليزيّة التي تشدّد على أهميّة الخصوصيّات الفرديّة، ولا ينفي ذلك وجود المقاربة النقيض التي تؤكّد أهميّة الفاعل التاريخي وخصوصيّة المسارات الفرديّة، وتنفي إمكانيّة اختزال الأفراد وسلوكياتهم في أنساق معياريّة عامة، وهي مقاربة قريبة من الميكروستوريا الايطاليّة في بحثها عن "الاستثناء العادي" والحالات القصوى التي لا تتطابق مع المعايير الاجتماعيّة السائدة.[3]

[1] - Dosse (François), *Le pari biographique. Ecrire une vie*, Editions La Découverte, Paris, 2005, p. 213.
[2] - Pillorget (René), « La biographie comme genre historique : sa situation actuelle en France », *Revue d'Histoire Diplomatique*, n^{os} 1- 2, 1982, p. 24.
[3] - Valenti (Catherine), « La biographie historique en France : un essai d'historiographie », *Cercles. Revista d'Historia Cultural*, n^{o} 10, 2007, p.156.

ونعتقد أنّ تجربة الطيب رضوان، ومساره الفردي، ومصير ثروته الطائلة، تحمل ملامح التفرّد والخصوصيّة أكثر من قابليّتها للنمذجة، أو من تمثيليّتها لمجموعات أوسع، وهو ما سنحاول إبرازه من خلال اعتماد مقاربة بيوغرافية غير خطيّة وغير خاضعة للتنميط أو للتقسيم الزمني البيولوجي.

I- ثروة عائليّة وشخصيّة طائلة:

1-: مكّونات ثروة الطيب رضوان ومصادرها:

جدول عدد 1: هناشر الطيب رضوان:

اسم الهنشير	موقعه	مساحته (هك)
الهري 1	مجاز الباب	413.65.00
الهري 2 أو برج التومي	مجاز الباب	167.00.00
القنطرة بروتفيل	قنطرة بنزرت سبّالة بن عمار	7.82.30
بروتفيل 2 أو بوحلوفة	قنطرة بنزرت (سبّالة بن عمار)	153.24.72
سماية	قنطرة بنزرت (سبّالة بن عمار)	181.16.40
العريمة 1	ماطر	62.14.00
العريمة 2	ماطر	43.56.80
بوسدرة أو بهاية	ماطر	288.38.00
الصدفيني	مرناق	517.20.00
ولجة الأصرم	برج التومي	59.74.60
حبيب السايح أو جبل السبع	المرناقية	407.70.00
طوبة الأصرم	سبّالة بن عمّار	179.91.30
الأصرم 1	منزل راشد (مشيخة طرود)	180.20.00
الأصرم 1 مكرّر	منزل راشد (مشيخة طرود)	144.50.00
سانية القنطرة	قنطرة بنزرت	9.59.79

خلّف الطيب رضوان عند وفاته في غرّة مارس من سنة 1954 تركة ضخمة تشمل عقارات ورباعات ومنقولات قدّرت قيمتها آنذاك بحوالي مليار من المليمات.[4] ويتكوّن أساس هذه الثروة من عقارات ريفيّة تتمثّل في خمسة عشر هنشيرا تمسح 2815 هكتار. وكانت النواة الأولى لهذه العقارات موجودة في منطقة حوض مجردة الأسفل: سبّالة الكاهية (سبّالة بن عمار) وبروتفيل (قنطرة بنزرت) وطرود، وهي منطقة معروفة بتركّز الملكيّة في أيدي كبار الملاكين التونسيين والمعمّرين الفرنسيين.[5] ويبدو جليّا أنّ مصطفى بن علي رضوان والد الطيب رضوان لم يشرع في شراء الأراضي بهذه المنطقة إلّا في أواخر حياته (توفي سنة 1904) أي في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، إذ تشير تقارير الضبّاط الفرنسيين أنّ هنشير "سماية" كان تابعا سنة 1891 للملاكين الحضريين مصطفى البرجي وحمدة الحجّام، في حين كان هنشير "بوحلّوفة" ملكا لأحد أعيان سبّالة الكاهية وهو محمد كعوانة، ولا نجد في المقابل أيّ ذكر لمصطفى رضوان في قائمة الملاكين بالمنطقة.[6] وقد عثرنا بالفعل على مطلبي تسجيل تقدّم بهما مصطفى رضوان إلى دفتر خانة سنة 1894: يهمّ الأوّل هنشير "سماية" المتكوّن من "ثماني وعشرين قطعة أرض ملاصق بعضها ببعض جملة مساحتها مائتان وخمسون هكتارا"، ويتمثّل الثاني في عقار يعرف باسم "فندق القنطرة" مساحته ألف متر مربّع، ويتكوّن من فندق ومسكن ومقهى ودكان.[7]

ونشير إلى أنّ مصطفى رضوان، الذي كان من القلائل المنتمين لفئة العلماء والمخزن في نفس الوقت، نجح في تكوين ثروة معتبرة بفضل صلته الوطيدة بالوزير محمد خزندار الذي اصطفاه كاتبا خاصا لازمه في رحلتيه إلى الأستانة سنتي 1854 و1856، وعيّنه رئيس كتبة المحلّة سنة 1857، ثمّ بفضل علاقته بالوزير خير الدين باشا الذي اختاره لخطة كاتب أوّل بالكوميسيون المالي، وأشركه في مختلف اللجان الإصلاحيّة التي قام ببعثها.

[4]- **الأرشيف الوطني التونسي**، السلسلة D 1، الملف 168: نازلة رفعتها إدارة بيت المال لاستخلاص منابها من تركة الطيب بن مصطفى رضوان (1954- 1989)، وثيقة من دون تاريخ ولا إمضاء عنوانها: "مذكّرة في شأن تركة المنعم الشيخ الطيب رضوان ابن المبرور الشيخ مصطفى رضوان".

[5]- السباعي (فوزي)، "سبالة بن عمار: التسميات المختلفة ودلالاتها التاريخية"، في **بحوث حول تاريخ القرى في تونس** (جمع وتقديم فتحي ليسير)، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، 2008، ص. 85- 108.

[6]- **المعهد العالى لتاريخ تونس المعاصر**، سلسلة الإقامة العامة، بكرة G1، صندوق 3: السبالة ومنوبة واريانة، محيّن في 1891.

[7]- **الرائد التونسي**، عدد 45، 5 جوان 1894، ص. 4.

وقام محمد الصادق باي من جهته بتعيينه عضوا في مجلسه الشوري الخاص، وكلّفه بتمثيل الدولة في مختلف الدعاوي المالية المرفوعة ضدّ الوزير مصطفى بن اسماعيل وأمير اللواء احميدة بن عيّاد، ثمّ عيّنه بعد انتصاب الحماية رئيسا للكتبة في إدارة المال العامة.[8]

وشغل مصطفى رضوان علاوة على هذه الوظائف المخزنيّة خطّة مدرّس بجامع الزيتونة من الطبقة الثانية (1868) ثمّ من الطبقة الأولى (1869)، وكان له نشاط تجاري مع مصر قبيل الاحتلال الفرنسي.[9]

تمتّع الطيب رضوان بالإضافة إلى إرث والده بجزء من تركة شقيقه الوحيد محمد رضوان، المدرّس الزيتوني والموظف بإدارة المال والقاضي الحنفي بالحاضرة، الذي توفي سنة 1933 وقسّم مخلّفه بين زوجته محرزيّة بنت الدرويش وأخويه الطيب وآمنة رضوان.[10] وحصل الطيب رضوان بالخصوص على "هنشير الصدفيني" بمرناق الذي اشتراه محمد رضوان غداة الاحتلال الفرنسي، ممّا يؤكّد تواصل صعود هذه العائلة العلميّة بعد الحدث الاستعماري مقابل انهيار بعض الفئات المخزنيّة.[11] ويبدو أنّ الطيب رضوان نال بعض الأراضي الأخرى عن طريق الإرث أو الشراء من صهره محمد الأصرم الأستاذ المعروف بالصادقيّة، إذ نجد أنّ أربعة من ضيعاته كانت تابعة كما تدلّ تسمياتها إلى عائلة الأصرم التي فقدت مكانتها المخزنيّة.

نجح الطيب رضوان في توسيع إرثه العقاري بشراء ضيعات أخرى بمناطق يهيمن عليها عادة المعمّرون الأوروبيّون مثل ماطر ومجاز الباب، من ذلك أنّه اقتنى سنة 1952 "هنشير بوسدرة" المعروف باسم "بهاية" من أحد المعمّرين الفرنسيين بمبلغ 40 مليون فرنك، وهو عبارة عن ضيعة مثاليّة تمسح حوالي 300 هكتار بها عدّة بناءات وتجهيزات

---

[8]- للاطلاع على المزيد من المعطيات حول مصطفى رضوان أنظر:
- بن عاشور (محمد الفاضل)، "العلّامة الرئيس الشيخ مصطفى رضوان"، **المجلة الزيتونيّة**، المجلّد 9، الجزء 5، 1955، صص. 285- 288.
- النيفر (محمد)، **عنوان الأريب عمّا نشأ بالبلاد التونسيّة من عالم وأديب**، تذييل واستدراك علي النيفر، ج. 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، صص. 993- 1002.

[9] - Ben Achour (Mohamed El Aziz), *Catégories de la société tunisoise dans la deuxième moitié du XIX^{ème} siècle*, I. N. A. A., Tunis, 1989, p. 329.

[10]- **أ. و. ت.**، س. 1 D، م. 168...**نفس المصدر**، مراسلة من عبد الجليل الخلصي نائب ورثة أرملة محمد رضوان إلى مدير أملاك الدولة بتاريخ 15 أوت 167.

[11]- البرقاوي (سامي)، **الملكيّة العقاريّة وعلاقات الإنتاج بجهة تونس بين 1875 و1914**، دار المعلمين العليا بسوسة، 1989، ص. 202.

وأصول زيتون وأشجار مثمرة وبيوت نحل،[12] وتمثّل هذه المبادرة، التي تزامنت مع بداية المقاومة التحريريّة المسلحة، تحويلا عكسيّا للملكيّة أثار في وقته احتجاج "المتفوقين" الفرنسيين ومخاوفهم.[13] وقام الطيب رضوان أيضا بمعاوضة الإنزال الموظّف على "هنشير بوحلّوفة" لدى جمعيّة الأوقاف سنة 1950.[14]

جدول عدد 2: أملاك الطيب رضوان بجهة الساحل:

اسم القطعة	موقعها	المساحة/ عدد أصول الزيتون
ملك الطيب رضوان	سيدي عامر	2.5 هك
شعبة الهويمل	سيدي عامر	6.5 هك
روميده	الساحلين	6.3 هك
عشرون قطعة	سوسة والساحلين وسيدي عامر والمسعدين والقلعة الصغرى والقلعة الكبرى	2039 أصل زيتون

يملك الطيب رضوان حوالي 3 آلاف أصل زيتون بغابة الساحل موزّعة على عدّة قطع صغيرة، تأتت له عن طريق الإرث عن جدّه علي رضوان وهو تاجر أسلحة وفد على مدينة سوسة من تركيا أو على الأرجح من شمال شرقي أوروبا، وخصوصا عن والده.[15] وظلّ مصطفى رضوان محافظا على صلته بمدينة سوسة مسقط رأسه حتّى بعد انتقاله إلى مدينة تونس لاسيّما أنّ محمد خزندار نفسه كان يشغل خطة عامل وطن الساحل. وارتبط بعلاقة مصاهرة مع عائلة زين العابدين ذات الأملاك العقاريّة بسوسة.[16]

[12]- **أ. و. ت.**، س. D 1، م. 168...**نفس المصدر**، مذكّرة من كاتب الدولة للرئاسة إلى كاتب الدولة للماليّة بتاريخ 9 نوفمبر 1957.
[13]- الزمرلي (الصادق)، "الشيخ الطيب رضوان 1869- 1955: المدرّس والمزارع ورجل العمل"، في: **أعلام تونسيون**، القسم الثالث (السّابقون)، تقديم وتعريب حمّادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص. 290.
[14]- **أ. و. ت.**، س. D 1، م. 168...**نفس المصدر**، مذكّرة من كاتب الدولة للرئاسة إلى كاتب الدولة للماليّة بتاريخ 9 نوفمبر 1957.
[15]- تعرف عائلة رضوان حسب محمد العزيز بن عاشور أيضا باسم "البروسيان" وهو ما يعني أنّها ربّما تكون ذات أصول جرمانيّة. أنظر:
- Ben Achour (Mohamed El Aziz), *Catégories…op. cit.*, p. 432.
[16]- قرين (أرنولد هـ.)، **العلماء التونسيّون (1873- 1915)**، ترجمة حفناوي عمايريّة وأسماء معلّي، المجمع التونسي بيت الحكمة ودار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1955، ص. 355. وتبيّن لنا وثائق الملكيّة العقاريّة أنّ اسم والدة الطيب رضوان هو: زينب بنت الحاج يوسف اللطيّف السّوسي، وقد توفيت حسب جريدة "الوزير" في أواخر شهر جانفي من سنة 1921.

انتقل مصطفى رضوان وهو في السادسة عشرة من عمره إلى مدينة تونس لمواصلة دراسته بجامع الزيتونة، واستقر بها صحبة والده بصفة نهائيّة مؤسّسا بذلك الفرع التونسي لعائلة رضوان. وكانت العائلات الحنفيّة الآفاقيّة تجد في العادة صعوبة في الاندماج في الوسط البلدي بالحاضرة، إلّا أنّ عائلة رضوان تجاوزت ذلك وتتونست بسرعة بفضل حماية الوزير محمد خزندار لها وكذلك بفضل شبكة العلاقات والمصاهرات التي نسجتها مع عائلات بلديّة مرموقة مثل عائلة سليم المخزنية وعائلة النيفر العلمية المالكية.[17]

جدول عدد 3: العقارات الحضريّة (الرّباعات) التابعة للطيب رضوان:

نوع العقار	اسمه	موقعه
دار فيها خزينة كتب	دار العالم	نهج القلش زنقة القلش تونس
دار وعلو	الجنينة	زنقة القلش
حانوت ومخزن		شارع باب البنات تونس
مستودع ومكتب		شارع فرحات حشاد تونس
فيلا	رضوان	المرسى
فيلا	سعيدة المرسى	المرسى
دار	النيفر	المرسى
دار	العقار	المرسى
دار	مبروكة المرسى	المرسى
دار		المرسى
دار		المرسى
6 مستودعات		المرسى

تبيّن قائمة الرّباعات التي خلّفها الطيب رضوان أنّ عائلة رضوان اكتسبت منذ عهد مؤسّسها علامات الوجاهة البلدية التي اختزلها المثل العامي في "دار وحانوت وقبر وين يموت"،[18] حيث اقتنى مصطفى رضوان دارا بربض باب السويقة على مقربة من نهج الباشا أين تقطن عائلات عريقة أبرزها عائلة بن عاشور،[19] وتحتوي هذه الدار التي تحمل

[17] - Ben Achour (Mohamed El Aziz), *Catégories…op. cit.*, p. 215.

[18]- المكني (عبد الواحد)، **النخب الاجتماعية التونسية زمن الاستعمار الفرنسي (1881-1956) الأشراف والبلدية مثالا**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، صفاقس، 2004، ص. 215.

[19] - Revault (Jacques), *Palais et résidences d'été de la région de Tunis (XVI^{ème} – XIX^{ème} siècles)*, C.N.R.S., Paris, 1974, p.337.

اسما رمزيّا (دار العالم) على مكتبة قيّمة آلت ملكيتها بعد وفاة الطيب رضوان إلى وزارة الثقافة. واستقرّ محمد رضوان، الملقّب باسم "قاضي الجنّة" في هذه الدار، في حين انتقل الطيب رضوان إلى ضاحية المرسى حيث دفن والده، واستقرّ في "دار رضوان" التي قام بتسجيل ملكيتها منذ شهر سبتمبر 1904.[20]

ويدلّ ما تقدّم على أنّ عائلة رضوان ظلت في حالة صعود اجتماعي بعد انتصاب الحماية، وحافظت على هويّتها الأصليّة كعائلة علماء، غير أنّها فقدت طبيعتها المخزنيّة مكتسبة هويّة جديدة بوصفها عائلة فلاحيّة.

2- تنمية الثروة باعتماد وسائل إنتاج عصريّة:

كان الطيب رضوان، ذلك الزيتوني المعمّم المحافظ دوما على زيّه التقليدي، مثالا للفلاح المتفتّح الشغوف بالرقي والتحديث في الميدان الفلاحي، وهو أمر نادر في صفوف الملاّكين العقاريين المنتمين إلى نفس الوسط الاجتماعي. ويعود ذلك إلى تأثير والده فيه وهو الذي واكب عن قرب النهضة التونسيّة في أواخر القرن التاسع عشر بقيادة خير الدين باشا والجنرال حسين وسالم بوحاجب وغيرهم، وكذلك إلى طبيعة تكوينه العلمي المزدوج حيث درس في المعهد الصادقي إلى جانب تكوينه الأصلي في جامع الزيتونة، واحتكّ برموز الصادقيّة مثل صهره محمد الأصرم وخصوصا علي باش حانبة الذي أثّر فيه تأثيرا كبيرا.[21] ولا ينفي ذلك طبعا دور الخصال الشخصيّة والمكانة المادية المريحة والاقتداء بالمعمّرين الفرنسيين في تدعيم هذا التوجّه نحو الفلاحة العصرّية.

وإذا كان إقبال الفلاحين التونسيين "المتبرجزين" على استعمال الآلات العصريّة في الفلاحة ظاهرة واضحة غداة الحرب الكبرى، فإنّ عائلة رضوان اختارت هذا النهج التحديثي منذ بداية القرن العشرين، حيث كان محمد رضوان يستعمل في ضيعته بمرناق

---

[20]- **الرائد التونسي**، عدد 79، 1 أكتوبر 1904.

[21]- Abdelhac (pseudonyme de Chadly Khalladi), « Si Taïeb Radhouane, patron des étudiants », in : *Au temps de la colonisation,* t. 1 : *des hommes et leurs comportements*, M. T. E., Tunis, 1989, p. 69- 70.

"المحراث السوري" و"ماكينة الحصاد والدراس"، ولا يتوانى عن استعمال احدث الأساليب الزراعية مثل الزراعة البعلية عن طريق الحراثة التحضيرية وتخصيب التربة بالأسمدة المتنوعة (الغبار والفسفاط)، وانتقاء البذور الملائمة للتربة وذات المردود العالي، وتخصيص جانب من الأرض للزراعات العلفيّة لتعويض نقص المراعي الناجم عن تعدّد عمليات الحرث.[22]

كان الطيب رضوان يعتمد نفس الأساليب الزراعية المتطورة في ضيعاته بسبّالة الكاهية، ويعطينا العقد الذي أبرمه مع شريكه سنة 1950 فكرة ضافية حول رؤيته للعمل الزراعي العصري، إذ اشترط عليه "توظيف كلّ معارفه في اتّباع فلاحة عصريّة تعتمد كليّا على المكننة بهدف الحصول على الحدّ الأقصى من المردود بالحدّ الأدنى من التكاليف، مع ضرورة الحفاظ على الأرض للمستقبل وعدم إنهاكها. ويكون ذلك باعتماد التناوب الزراعي وزراعة البقول (تساهم في إثراء التربة بالآزوت) واستعمال الأسمدة والقيام بالحراثة التحضيريّة".[23] واشترط عليه استعمال الأدوات الفلاحيّة الموجودة في ضيعاته والمخصّصة للبذر والحشّ والحصاد والدرس والنقل. وتضمّن العقد قائمة مفصّلة بهذه الأدوات تمثلت في ما يلي: جرّار بسلاسل معدنيّة، جرّار أمريكي بعجلات مطّاطيّة من نوع "الّيس تشالمرز"، حصّادة درّاسة من نفس النوع، حصّادة ربّاطة، محراث اسطواني، محراث متعدّد الاسطوانات، آلتان للبذر، آلة غربلة للحبوب، آلة لحام، محرّك فرنسي من نوع برنار، مضختي مياه، عربة معدنيّة وعربة من خشب.[24]

وكانت ضيعاته الأخرى الموجودة بمجاز الباب وماطر مجهّزة بأدوات وتجهيزات عصريّة للزراعة وتربية الأبقار،[25] ولكنّ تخصّصه الأساسي تمثّل في زراعة الحبوب. وكان متعاقدا مع "الشركة التعاضديّة لبذور البلاد التونسيّة" Société coopérative de

[22]- البرقاوي (سامي)، **الملكيّة العقاريّة...نفس المرجع**، ص. 233 و236.

[23]- **أ. و. ت.**، س. D 1، م. 168...**نفس المصدر**، نسخة من عقد شركة بين الطيب رضوان وعبد الحميد بن عيسى بتاريخ 1 أكتوبر 1950.

[24]- **المصدر نفسه.**

[25]- قام مدير أملاك الدولة سنة 1961 بالتفويت في المعدّات العصريّة، الموجودة في هنشير "الهري" والمخصّصة لتربية الأبقار، لفائدة وسيلة بن عمار.

وخصّص semences de Tunisie (كوسام Cosem) بوصفه منتجا مكثرا Multiplicateur.[26] بموجب هذا العقد هنشير "سماية" و"بروتفيل" لإكثار القمح الصلب من النوعيّة المنتقاة من هذه التعاضديّة التي تتكفّل بموجب ذلك بقبول مجمل المحصول إذا توفرت فيه المواصفات المطلوبة. ويقوم الطيب رضوان بترويج باقي منتوجه من القموح عن طريق "الشركة التعاضديّة للقمح التونسي" Socoblé، التي كانت تتحكّم في الخمسينات في السوق التونسيّة للحبوب مع "التعاضديّة المركزيّة للفلاحين التونسيين".[27]

وأقدم الطيب رضوان قبيل وفاته على تطبيق تجربة رائدة تمثلت في استعمال الطائرة لرشّ الأسمدة التي تعذّر رشّها بالطريقة اليدويّة المعتادة نظرا لتجمّع مياه الفيضانات في جزء كبير من هنشير سماية، وتمّ استعمال الطائرة أيضا في نفس اليوم لبذر القمح الصلب وذلك لأوّل مرّة بالبلاد التونسيّة. ونالت هذه التجربة التي أشرف عليها المهندس الفلاحي عبد الحميد بن عيسى إعجاب التونسيين والمعمّرين، وواكبتها جريدة "لادبيش تونيزيان" التي علقت بعد نجاحها بالقول: "لم يعد البذر بالطائرة مجرّد أسطورة، ويعود الفضل في ذلك إلى من كانوا السبّاقين في محاولة التجربة".[28]

3- إدارة الثروة بالطرق الرأسماليّة:

تخلّى الطيب رضوان بعد وفاة والده عن وظيفته بسلك التدريس الزيتونى لفائدة أخيه محمد، وتفرّغ كليّا للعمل الفلاحي المباشر، ولم يسع إلى تنويع نشاطه الاقتصادي إلّا بصفة عرضيّة من ذلك إقدامه سنة 1934 على بعث شركة لنسيج الأقمشة صحبة علي بوحاجب ومحمد بن ميلاد وغيرهم، وهو توجّه لم يحقّق فيه نجاحا كبيرا مقارنة بنشاطه الفلاحي الأساسي.[29] ولكن، ونظرا إلى وجود أملاكه وأملاك عائلته في مناطق مختلفة من البلاد التونسيّة، فإنّه كان مجبرا على حصر الإدارة المباشرة في الضيعات الكبرى ولا سيّما تلك

---

[26]- تكونت تعاضديّة "كوسام" سنة 1947 وتسمّى حاليا "الشركة التعاونيّة المركزيّة للبذور" Société mutuelle centrale de semences ومقّرها في منّوبة. أنظر: www.cosem.com.tn

[27] - *Revue historique de l'armée*, vol. 11, 1955, p. 34.

[28] - Moreaud (M.), « l'aviation vient en aide à l'agriculture », *La Dépêche tunisienne*, 3 mars 1954.
نشر التحقيق بعد يومين من وفاة الطيب رضوان، ولكن من الأكيد أنّ التجربة تمت في خريف سنة 1953.

[29]- "مشروع وطني مفيد: شركة النسيج التونسية"، **النديم**، عدد 652، 24 نوفمبر 1934.

الموجودة بسبّالة الكاهية، في حين اعتمد نظام التسويغ والشركة بالنسبة لبعض الأراضي الأقل قيمة أو تلك الموجودة بالساحل.

وقد أدّى إقبال الطيب رضوان على المكننة منذ بداية القرن العشرين إلى استعانته بالعمال المأجورين المختصين في الحراثة الآليّة والسياقة وغيرها من الأعمال الفنيّة، وكان ينتدبهم في البداية من صفوف الفنيين الأوروبيين قبل أن يعتمد تدريجيّا على التونسيين المتخرجين من المدارس الفلاحيّة.[30] إلّا أنّ اعتماد نظام الإجارة والتوسّع فيه تدريجيّا لم يؤدّ إلى القطع التام مع عقود الشغل القديمة ما قبل الرأسماليّة، إذ أنّه واصل اعتماد نظام الخماسة في بعض أراضيه مثل "سانية القنطرة" إلى حدّ سنة 1950. واعتمد أيضا وبصفة جزئيّة "عقد القوامة" أو ما يعرف محليّا باسم "شركة الظهر".[31]

بدأ الطيب رضوان منذ سنة 1947 في تطبيق طريقة جديدة لإدارة ضيعاته، إذ عقد شركة مدّتها ثلاث سنوات مع المهندس الفلاحي الطيب بن عيسى، واقتصر الأمر في البداية على هنشير "سمايه" فقط. وتمّ تجديد العقد في بداية أكتوبر 1950 مع توسيعه ليشمل ثلاث ضيعات ريفيّة: "سماية" والقنطرة بروتفيل" و"القنطرة 2" إضافة إلى "سانية القنطرة"، وليمتد على خمس سنوات متتالية وقابلة للتجديد.[32] وتعهّد الشريك بموجب هذا العقد بالتخلّي عن وظيفته ونشاطه التجاري ليتفرّغ كليّا لاستغلال هذه الضيعات وإدارتها بأحدث الطرق والوسائل كما بينّا أعلاه، وتعهّد إضافة إلى انتداب العمّال والحفاظ على الآلات والتجهيزات والبذور والمحصول والإقامة بالضيعة زمن البذر والحصاد، بالقيام بدراسة مشروع للريّ وتجفيف المستنقعات وتصريف المياه وتطهيرها. والتزم الملّاك بالمقابل بتمويل هذا المشروع، وبتوفير المصاريف اللّازمة لاستغلال الضيعات. ويطالب الشريك بدفع مليون فرنك معين كراء سنوي، على أن يتمّ توزيع الربح الصافي بعد طرح

---

[30]- **أ. و. ت.**، س. 1 D، م. 168...**نفس المصدر**، رسالة من رئيس الشعبة الدستوريّة بقنطرة بنزرت إلى كاتب الدولة للرآسة بتاريخ 10 سبتمبر 1957.

[31]- **المصدر نفسه**، ردّ معتمد منّوبة على شكوى تقدّم بها مواطن من قنطرة بنزرت إلى رئيس الجمهوريّة بتاريخ 26 فيفري 1959. ويقوم عقد "القوامة" على ابرام شركة بين المؤجّر بالظهر أي بالمواشي اللازمة للعمل، والعامل بصحّة البدن أي بقوّة عمله. ويقتسم الطرفان البذر والمصاريف والصابة أنصافا. أنظر: البرقاوي (سامي): **الملكيّة...نفس المرجع**، ص. 270.

[32]- **المصدر نفسه**، نسخة من عقد شركة بين الطيب رضوان وعبد الحميد بن عيسى بتاريخ 1 أكتوبر 1950.

كافة المصاريف التي وفّرها الملّاك على أساس الثلثين لصاحب الأرض والثلث للشريك.[33]

ولا يعني ذلك أنّ الطيب رضوان تخلّى كليّا عن مبدإ الإدارة المباشرة لأراضيه، إذ يتيح له هذا العقد المشاركة في إعداد برنامج العمل المزمع تطبيقه سنويّا، واحتكار حقّ المراقبة من دون تفويضه لأيّ شخص آخر. ويبدو هذا العقد، المتكوّن من 16 بندا، خطوة مهمّة في تطوّر طرق الاستغلال وعلاقات الإنتاج بالبلاد التونسيّة في أواخر الفترة الاستعماريّة، حيث يمثّل قطيعة نهائيّة مع عقود الشغل القديمة ما قبل الرأسماليّة وتأسيسا لنظام جديد للاستغلال الفلاحي هو مزيج من الشراكة والتسويغ والإدارة الفنيّة، كما ينصّ على ضرورة انتداب عمّال مختصين يتولّى الملّاك أو الشريك خلاصهم شهريّا، أمّا العطل السنويّة فلم يتم التنصيص عليها إلّا لفائدة الشريك، الذي حصل بعد ذلك على امتياز إدارة هنشيري "الهري" و"العريمة" بنفس شروط العقد السابق، ولكن مقابل كراء سنوي مقداره مليون ونصف فرنك لكلّ هنشير.[34]

II- ثروة موظّفة جزئيّا لخدمة الحزب والجمعيّات والطلبة:

1- سياسي بالعاطفة:

يقول عنه صديقه الشاذلي الخلادي: "كان الطيب رضوان من المنتمين للحزب الدستوري منذ البداية وحتّى نهاية حياته، من دون أن يكون أبدا في واجهة الأحداث".[35] وبالفعل، وعلى الرغم من انضمامه للحزب التونسي غداة الحرب الكبرى وللحزب الدستوري التونسي سنة 1920، فإنّه لم يبرز بنشاطه الميداني المنتظم والفعّال إذ لا نجد اسمه في القائمة التي وضعها العقيد بارون حول الأشخاص الذين ساهموا سنة 1919 في الاجتماعات والمناقشات والتظاهرات الدعائيّة لفائدة الحزب، ولم يشارك في الاجتماعات

[33]- **المصدر نفسه.**

[34]- **المصدر نفسه**، عقد شركة بين الطيب رضوان وعبد الحميد بن عيسى من دون تاريخ.

[35] - Abdelhac (pseudonyme de Chadly Khalladi), « Si Taïeb Radhouane…*op. cit.*, p. 70.

التي انتظمت لتحديد برنامج الحزب ومطالبه وأبرزها اجتماع يوم غرّة فيفري 1920 واجتماع 14 مارس من نفس السنة.[36]

لم يشارك الطيب رضوان سوى في بعض الوفود الشرفيّة مثل وفد الثلاثين الذي قدّم إلى محمد الناصر باي يوم 18 جوان 1920 عريضة تتضمّن مطالب الحزب الدستوري الناشئ، قبل أن نجده في فيفري 1937 ضمن الوفد الذي استقبله بيار فيينّو مساعد وزير الخارجيّة في حكومة الجبهة الشعبيّة. وحتّى عند انتخابه عضوا باللجنة التنفيذيّة للحزب الدستوري في 29 ماي 1921، فقد كان ذلك بوصفه مستشارا لا عنصرا قياديّا ناشطا.[37] ولئن لم ينخرط خلافا لبعض كبار الملاّكين في الحزب الإصلاحي الذي تشكّل بعد عودة الوفد الدستوري الثاني سنة 1921، فإنّه ابتعد منذ سنة 1922 عن النشاط السياسي الفعلي، وظلّ أقرب إلى الاستقلاليّة التنظيميّة عن مختلف الأحزاب السياسيّة بما فيها الحزب الدستوري الجديد رغم صلته الوطيدة بالطاهر صفر أحد مؤسّسيه.[38]

تتّفق كلّ الشهادات بالمقابل أنّ الطيب رضوان كان من أبرز مموّلي حركة الشباب التونسي والحزب الدستوري،[39] ويذكر القاضي محمود شمّام في كتابه "أعلام من الزيتونة" أنّه موّل الوفد الدستوري في بداية العشرينات بمبلغ مليون فرنك، وهو أمر مبالغ فيه لأنّ الأموال التي جمعها الوفد الدستوري الأوّل لم تتجاوز قيمتها 150 ألف فرنك حسب شهادة شارل مونشيكور.[40]

ويدلّ ما تقدّم أنّ الطيب رضوان لم يتخذ من السياسة حرفة، وإنّما كان يتعاطى السياسة "بموجب العاطفة وبحكم الالتزام الاجتماعي" فقط كما بيّن معاصره الصادق الزرملي، الذي بنى حكمه على أساس معرفته بطبيعة شخصيّة الطيب رضوان الذي كان حسب

---

[36]- تقرير العقيد بارون الوارد في ذيل كتاب: الثعالبي (عبد العزيز)، **تونس الشهيدة**، تعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1984، ص. 334-335.

[37]- المدني (أحمد توفيق)، **حياة كفاح (مذكرات) الجزء الأول في تونس 1905-1925**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973.

[38]- ورد اسمه في العريضة التي أرسلها الحزب الدستوري إلى النائب تايتنجر في نوفمبر 1922 وتبرّأ فيها من الشيوعيّة، ثمّ نشرت الصحف تكذيبا مفاده أنّ الطيب رضوان وعلي كاهية لم يحضرا أصلا الاجتماع الذي تقرّر فيه إرسال تلك البرقيّة.

[39] - Casemajor (Roger), *L'action nationaliste en Tunisie : du pacte fondamental de M'hamed Bey à la mort de Moncef Bey (1857-1948)*, Tunis, 1948, p. 342.

[40] - Rodd Balek (pseudonyme de Charles Monchicourt), *La Tunisie après la guerre*, publication du comité de l'Afrique française, Paris, 1920-1921, p. 64.

شهادته رجلا وديعا وبسيطا ومجاملا إلى حدّ الخجل، ومتحفّظا ومدقّقا إلى أقصى درجة وقليل الكلام، وهي خصال لا تؤهّله ليكون رجل سياسة من الصفّ الأوّل، لأنّ السياسة هي قبل كلّ شيء موهبة وحرفة تتطلّب التفرّغ الكلّي، واختار الرجل التفرّغ لأنشطة أخرى.[41]

2- متعاون حذر مع الإدارة الاستعماريّة:

كانت علاقة الطيب رضوان قبل نشأة الحزب الدستوري جيّدة مع إدارة الحماية، حيث اقترح عليه الكاتب العام للحكومة برنار روا Bernard Roy سنة 1913 الانضمام إلى "الندوة الاستشاريّة"، ولكنّه اعتذر عن قبول هذا العرض، وعلّل ذلك بأنّ حالته الصحيّة لا تسمح له بإضافة أيّة مهمّة جديدة إلى مشاغله الأخرى. وذكر في رسالته إلى برنار روا أنّ نفس هذه الأسباب كانت قد أرغمته على التخلّي عن مهنة التدريس بجامع الزيتونة رغم قيامه بدراسات معمّقة طيلة شبابه بالجامع وخارجه.[42]

وقبل الطيب رضوان غداة الحرب الكبرى تعيينه عضوا بمجلس بلديّة الحاضرة، وحافظ على هذه العضويّة إلى نهاية الحرب العالميّة الثانية، أي عندما أصبح الانتماء إلى هذا المجلس يتمّ عن طريق الانتخاب من الدرجة الثانية لا عن طريق التعيين[43]. وتمّ اختياره أيضا ليكون ضمن "لجنة تنمية الاستعمار" « Commission de colonisation »، وهي لجنة مختلطة تنظر في المسائل المتعلّقة بالاستعمار الزراعي كانت تضمّ في بداية العشرينات بعض التونسيين مثل عبد الجليل الزاوش والبشير الفورتي إضافة إلى الطيب رضوان. وقد برز الأعضاء التونسيون في هذه اللجنة برفضهم لمشروع قانون عرضه عليهم المقيم العام اتيان فلاندان في ماي 1920، ويتعلّق بضرورة إحياء كلّ الأراضي المهملة بالبلاد التونسيّة مهما كانت وضعيّتها القانونيّة. ونظّم الأعيان التونسيون حملة صحفيّة ومظاهرة

---

[41]- الزمرلي (الصادق)، "الشيخ الطيب رضوان...**نفس المرجع**، ص. 290.

[42]- **أ. و. ت**، س. E، ص. 543، م. 5: القسم الأهلي بالندوة الاستشاريّة (1907- 1922)، رسالة الطيب رضوان إلى برنار روا (مارس 1913).

[43] - Casemajor (Roger), *L’action nationaliste…op. cit.*, p. 342

احتجاجيّة أمام مقر الإقامة العامّة أثمرت تعطيل هذا المشروع، الذي كان في نظرهم مجرّد مدخل للاستحواذ على أراضي الأحباس الخاصة.[44]

وأبدى الطيب رضوان سنة 1922 اقتناعه بإصلاحات لوسيان سان، وشارك في انتخابات المجالس التمثيليّة المحدثة، فانتخب عضوا بمجلس الجهة الثانية (جهة تونس والأحواز) بوصفه ممثّلا لبلدية الحاضرة، وترشّح لانتخابات المجلس الكبير لكنّه فشل ولم يجدّد ترشحه إلى هذا المجلس بعد ذلك أبدا. ويبدو أنّ ذلك أثّر في علاقته بالشيخ عبد العزيز الثعالبي الذي كان متردّدا في البداية بشأن الموقف من المشاركة في انتخابات المجالس، حيث دعا أحيانا إلى التشهير بالطيب رضوان وطرده من الحزب لانضمامه إلى مجلس الجهة الثانية، ودعا في أحيان أخرى إلى ضرورة المشاركة في المجالس (المجلس الكبير ومجالس الجهات ومجالس القيادات) للتعاون مع الاشتراكيين الفرنسيين على تعطيلها من الداخل.[45]

ويتّضح حسب الشهادات والتقارير المختلفة أنّ انخراط الطيب رضوان في سياسة المشاركة والتعاون مع الإدارة الفرنسيّة لم يصل به أبدا إلى التعبير عن مظاهر الولاء للاستعمار، ولم يؤدّ به إلى الانتماء إلى التيّار الانتهازي والبراغماتي الذي جمع في العشرينات والثلاثينات كبار ممثلي البرجوازيّة التونسيّة بفصائلها المختلفة أمثال الطاهر بن عمار ومحمد شنيق ومحمد بن رمضان وغيرهم. ونذكر تأكيدا لذلك عدم انخراطه في "الحجرة الفلاحية التونسية للشمال" وهي المؤسّسة التمثيليّة الرئيسيّة التي كانت تدافع زمن الاستعمار عن مصالح الفلاحين التونسيين وتحديدا مصالح كبار الملاّكين العقاريين وكبار ملاّكي وسائل الإنتاج العصريّة.[46]

[44] - *Rodd Balek…op.cit.*, p. 62- 63.

[45] - Ministère des Affaires Etrangères (Quai D'Orsay), Série Tunisie (1917- 1940), Volume 35, note de M. Lucien Saint à M. Raymond Poincaré, 18 décembre 1922.

[46]- السباعي (فوزي)، **الطاهر بن عمار (1889- 1985): بيوغرافيا تاريخيّة**، أطروحة دكتوراه في التاريخ المعاصر، كليّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعية بتونس، 2010، ص. 109 وما تبعها.

3- نصير العمل الجمعيّاتي وراعي الطلبة:

يعتبر هذا الجانب في نظرنا الجانب الأكثر أصالة في شخصيّة الطيب ضوان، الذي وظّف نصيبا مهمّا من ثروته لتمويل الجمعيّات الخيريّة ومساعدة الطلبة الزيتونيين والصادقيين على مواصلة دراساتهم سواء بتونس أو بالخارج، ولا يخفى أنّ الرئيس بورقيبة ظلّ طوال حياته حاقدا على المحامي الشاذلي الخلّادي لأنّه نصح الطيب رضوان بتقديم منحة ماليّة للطالب محمد عطيّة بدلا عنه.[47]

كان الطيب رضوان عضوا في أوّل هيئة مديرة لجمعيّة قدماء المعهد الصادقي التي تأسست سنة 1905 مثلما كان شقيقه محمد رضوان عضوا في الهيئة الأولى لجمعيّة الخلدونيّة (1897)، وكان من المساهمين في تمويلها وفي تنشيط المحاضرات والدروس المفتوحة التي تقدّمها.[48] وشارك الطيب رضوان في المشاورات والاجتماعات التي نظّمها طلبة الزيتونة وأساتذتها لإنشاء جمعيّة خاصّة بهم، وذلك في مطلع سنة 1907 أي بالتوازي مع ظهور "حركة الشباب التونسي". وقد حملت هذه الجمعيّة في البداية اسم "جمعيّة تلامذة جامع الزيتونة"، ثمّ تغيّر اسمها فأصبحت تعرف باسم "الجمعيّة الزيتونيّة" وتغيّر رئيس هيئتها المنتخبة محمد رضوان بالطاهر بن عاشور.[49] وكان الطيب رضوان عضوا بهيئة هذه الجمعيّة التي سرعان ما انحلت بعد رفض الكاتب العام للحكومة منحها الترخيص القانوني.[50] وواصل الطيب رضوان اهتمامه بقضايا طلبة الزيتونة، فكان ضمن النخبة الزيتونيّة التي حاولت سنة 1942 تشكيل لجنة مهمّتها السعي لبناء حيّ زيتوني جديد لإيواء الطلبة، غير أنّ جمعيّة الحيّ الزيتوني لم تر النور إلّا في سنة 1946 ولم يكن الطيب رضوان عضوا فيها مكتفيا بالدعم المالي لمشروع بناء المبيت.[51]

---

[47] - Bessis (Sophie) et Belhassen (Souhayr), *Bourguiba*, t.1, printer industria grafica, Espagne, 1988, p.36.

[48] - Kassab (A) Ounaïes (A) et autres, *Histoire générale de la Tunisie, t. 4 : l'époque contemporaine (1881-1956)*, Sud Editions, Tunis, 2010, p. 189 et 194.

[49]- الزيدي (علي)، **الزيتونيون: دورهم في الحركة الوطنية التونسية (1904-1945)**، مكتبة علاء الدين بصفاقس وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، مارس 2007، ص. 69 وما تبعها.

[50]- بن عاشور (محمد الطاهر)، **أليس الصبح بقريب؟ التعليم العربي الإسلامي: دراسة تاريخيّة وآراء إصلاحيّة**، دار سحنون للنشر والتوزيع ودار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، تونس والقاهرة، 2006، ص. 217- 219.

[51]- الزيدي (علي)، **الزيتونيّون...نفس المرجع**، ص. 109- 110.

انتخب الطيب رضوان في صائفة 1920 عضوا في شركة مطبعة النهضة التي كان يترأسّها حسن القلاتي، إلّا أنّه فقد عضويّته في انتخابات سنة 1921 لفائدة منافسه الطاهر بن عمار.[52] وتكرّر الأمر ذاته في انتخابات "الجمعيّة الفلاحيّة الأهليّة" التي تكونت هيئتها الوقتيّة في أفريل 1928 برئاسة الطاهر بن عمار وعضويّة الطيب رضوان، ثمّ أقصي الطاهر بن عمار من عضويّة المكتب المنتخب سنة 1929 مقابل محافظة الطيب رضوان على مكانه قبل أن يتمّ إبعاده نهائيّا سنة 1930 من هذه الجمعيّة التي آلت رئاستها الفعليّة ثمّ الشرفيّة إلى الطاهر بن عمار إلى حدّ سنة 1937. ويفهم هذا الصراع في إطار الخلاف والتنافس بين الدستوريين من أنصار الثعالبي والإصلاحيين من أنصار القلاتي على الرغم من انتمائهم إلى نفس الشريحة الاجتماعية.[53]

وانتخب الطيب رضوان منذ شهر جانفي 1922 في مجلس إدارة "الجمعيّة الخيريّة الإسلاميّة" بالتوازي مع ارتقاء محمد بوسن لرئاسة هذه الجمعيّة بدل عمر بوحاجب، وشغل ضمن هذا المجلس خطّة أمانة المال إلى نهاية سنة 1926. وكانت "الخيريّة" تشكو سنة 1922 من صعوبات ماليّة وإداريّة، فاضطرّ إلى أن "يقرض الجمعيّة قروضا متوالية لسداد العجز الواقع"، وأن يضع برنامجا متكاملا للنهوض بها.[54] ونذكر من بين أبرز إسهاماته: بعث "لجنة العمل والابتكار" لاستنباط مصادر تمويل جديدة للجمعيّة، وإقناع المجلس البلدي بالحاضرة، وهو أحد أعضائه، بتخصيص منحة سنويّة للجمعيّة، وضبط الميزانيّة والحصول على زيادة كبيرة في المنحة السنويّة الحكوميّة من 3 آلاف إلى 20 ألف فرنك، واستمالة عدّة أطبّاء يهود وأجانب للعمل في عيادة الجمعيّة الخيريّة. واستعان الطيب رضوان في تحقيق إصلاحاته بالعربي مامي، فعيّنه على رأس لجنة الابتكار، ثمّ اصطفاه كاتبا خاصا له.[55]

واعترافا بهذا النجاح كلّفته الإدارة بإصلاح برامج التعليم بالمدرسة العرفانيّة التابعة للجمعيّة الخيريّة، فوضع برنامجا إصلاحيّا بعد استشارة عدّة خبراء، ولكنّ مدير المدرسة

[52] - « Constitution d’une société », *La Tunisie Française*, 20 mars 1921.

[53]- السباعي (فوزي)، **الطاهر بن عمار...نفس المرجع**، ص. 133 وما تبعها.

[54]- مؤلف مجهول، **صحائف بيضاء وصحائف سوداء. عن الجمعيّة الخيريّة الإسلاميّة**، مطبعة النجاح، تونس، 1926، ص. 11.

[55]- **المصدر نفسه**، ص. 12- 14.

رفض تطبيقه وخيّر الاستقالة من مهمّته التي خلفه فيها الشاب الطاهر صفر المتخرّج من الصادقيّة بتفوّق بعد أن أقنعه رضوان ومامي سنة 1923 بتأجيل التحاقه بالسوربون والتفرّغ لإدارة المدرسة وإصلاح برامجها ومناهجها.[56]

تشكّل تدريجيّا داخل مجلس الجمعيّة وخارجه تيّار معاد لهيمنة الثالوث النشيط: أي الطيب رضوان والعربي مامي والطاهر صفر، وبدرجة أقلّ رئيس الجمعيّة محمد بوسن الذي تجدّد انتخابه سنة 1924 صحبة أمين المال. وازداد الخلاف والتناحر بين الشقين بعد ارتقاء العربي مامي لعضويّة المجلس تعويضا لشغور وقع سنة 1925، وخصوصا أثناء انتخابات فيفري 1926 التي كرّست نجاح مجموعة الطيب رضوان. وتحوّل الخلاف إلى صراع مفتوح بين الطرفين، وتدعمت مكانة المعارضين وأبرزهم محمد بورقيبة ومحمد المالقي ويوسف زويتن بانضمام البشير معاوية كاهية رئيس الجمعيّة إلى صفوفهم، وركّزوا على استهداف العربي مامي المهيمن في نظرهم على دواليب الجمعيّة والمسيطر على رئيسها وأمين مالها، وكذلك على الطاهر صفر الذي انتقل إلى فرنسا وترك إدارة المدرسة لنائبه.[57]

حاول شقّ الطيب رضوان الظهور بمظهر المدافع عن المدرسة العرفانيّة ضدّ خصومها المطالبين بإلغائها ولكنّه تلقّى جملة من الضربات الموجعة، حيث توفي الرئيس محمد بوسن، وابتعد الطيب رضوان بسبب المرض أو فتور العزيمة، وأجبر الطاهر صفر على الاستقالة يوم 2 نوفمبر 1926، وتمّ طرد العربي مامي من عضويّة المجلس بعد ذلك بيوم واحد.[58] وتمثلت محاولتهم الأخيرة في نشر كتاب **"صحائف بيضاء وصحائف سوداء"** للدفاع عن وجهة نظرهم حول الخلاف وإبراز الأعمال الجليلة التي قام بها رضوان ومامي وصفر لفائدة الخيريّة والعرفانيّة، وكذلك ليكون بمثابة البرنامج في انتخابات ديسمبر 1926 التي رشّحوا لها الطيب رضوان لتولّي الرئاسة ضدّ الرئيس الوقتي البشير

---

[56]- مسوّدة الجزء الأوّل من مذكّرات رشيد صفر المنشورة في موقع:
http://rachid-sfar.blogspot.com/2014/08/blog-post.html

[57]- مؤلف مجهول، **صحائف بيضاء...نفس المصدر**، ص. 44- 50.

[58]- "قرار من مجلس إدارة الخيريّة التونسيّة"، **النديم**، عدد 283، 6 نوفمبر 1926.

معاوية.[59] وواصل الشقّ الآخر حملة التشهير بالعربي مامي وأصدقائه بمساندة بعض الصحف القريبة من الحزب الدستوري مثل جريدة "النديم"، التي علّقت على ترشيح الطبيب رضوان كالآتي: "نحن مع احترامنا لهذا الأخير فإنّنا نشهد أمام ضميرنا بأنّه لا يصلح لرئاسة الخيريّة لضعف في إرادته وعجز عمّا يجب لها من العمل والتفكير"، وهو ما ساهم في فشله في انتخابات ديسمبر 1926 وابتعاده نهائيّا عن هذه الجمعيّة.[60]

وكان الطيب رضوان قد شارك صحبة صديقيه العربي مامي والطاهر صفر وغيرهم في المشاورات الإعداديّة التي أشرف عليها محمد علي الحامي لبعث التعاونيّات الاستهلاكيّة. وتمّ اختياره يوم 29 جوان 1924 لرئاسة الاجتماع العام التأسيسي لجمعيّة "التعاون الاقتصادي التونسي" الذي انعقد بمقرّ الجمعيّة الخلدونيّة، ولكنّ محمد علي تخلّى عن هذا المشروع عندما انطلقت إضرابات عمال الرصيف وتوجّه إلى بعث نقابات عماليّة تونسيّة مستقلة.[61]

شرعت مجموعة الطيب رضوان بعد إقصائها من الخيريّة في الإعداد لبعث جمعيّة جديدة لإعانة الطلبة التونسيين ولا سيّما الدارسين منهم بفرنسا فظهرت منذ سنة 1928 "جمعيّة أحبّاء الطلبة" ونشطت في البداية بوصفها فرعا من "جمعيّة طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا"، التي اقترح عليها الطيب رضوان في فيفري 1930 تنظيم دروس في اللغة العربيّة بتونس، وتكفّل بتمويل هذا المشروع.[62]

وعمدت السلطة الفرنسيّة في صائفة 1929 إلى منع الحفلات الفنّية الخيريّة التي كانت تنظمها هذه الجمعيّة الفرعيّة بغرض جمع التبرّعات لفائدة الطلبة الدارسين بفرنسا، وذلك بدعوى أنّ جمعيّة طلبة شمال إفريقيا ليست جمعيّة تونسيّة. واضطرّ المتطوعون التونسيون إلى إنشاء جمعيّة جديدة مستقلّة عن الجمعيّة الأم، لكنّها لم تحصل على

[59]- مؤلف مجهول: **صحائف بيضاء...نفس المصدر**.يبدو على الأرجح أنّ هذا الكتاب من تأليف العربي مامي الذي حظي فيه بالمكانة الأبرز، أو هو تأليف جماعي شارك فيه الطاهر صفر والطيب رضوان.

[60]- "ويل للمشاغبين"، **النديم**، عدد 286، 27 نوفمبر 1926.

[61]- الحدّاد (الطاهر)، **العمّال التونسيّون وظهور الحركة النقابيّة**، دار صامد، صفاقس، 1997، ص. 47.

[62]- جريدة **الوزير**، 10 أفريل 1930.

الترخيص القانوني إلّا في جويلية 1931.[63] وقد لعبت جمعيّة أحبّاء الطلبة، التي ترأسّها محمود الماطري وتولّى الطيب رضوان أمانة المال في هيئتها، دورا مهمّا في مساعدة الطلبة التونسيين بفرنسا وكانوا الأكثر عددا مقارنة بالطلبة الجزائريين والمغاربة، إلّا أنّها شهدت تعثّرا بارزا أثناء رئاسة محمد التلاتلي في النصف الثاني من الثلاثينات ممّا يوحي بتجدّد الخلافات الداخليّة بين الأعضاء.

وقد حاول الصادق الزمرلي تفسير هذا الاهتمام الكبير الذي كان يوليه الطيب رضوان للطلبة التونسيين وللشباب عموما، فبيّن أنّه لم يكن فقط مجرّد تعويض عن الحرمان من الأبوّة بقدر ما كان تعبيرا عن شغف متأصّل بالعلم والتعليم وتكوين الكفاءات.[64] وطرح غياب العقب قضيّة أعمق تتعلّق بمآل الثروة الطائلة التي يملكها الرجل.

III- ثروة محلّ نزاع وأطماع:

1- برنامج الطيب رضوان بخصوص التصرّف في تركته:

لم يكن للطيب رضوان أبناء من صلبه، وكان مشكل خلافته في إدارة ثروته الطائلة يشغله كثيرا، وكان متأرجحا بين ضغط حفيديه للأخت الراغبين في الانفراد بالتركة وبين رؤيته الخاصّة لخدمة المصلحة العامّة. فكّر الطيب رضوان في البداية في بعث مؤسّسة كبرى على غرار مؤسّسة "كارنيغي للسلام الدولي" الأمريكيّة Carnegie، على أن تكون مؤسّسته مختصّة في تشجيع المبادرات الهادفة إلى تطوير الدراسات التكنولوجيّة الفلاحية. وبلور بعد ذلك برنامجا واضحا أو مشروعا استثماريّا وخيريّا أسرّ به إلى مجموعة من أصدقائه اجتمع بهم للغرض، وقد نقل الشاذلي الخلادي الخطوط العريضة لهذا البرنامج.[65]

يقتضي هذا المشروع تقسيم التركة على النحو الآتي:

---

[63] - Ageron (Charles Robert), « L'association des étudiants musulmans nord- africains en France durant l'entre- deux- guerres. Contribution à l'étude des nationalismes maghrébins », in : *Revue française d'histoire d'outre- mer*, t. 70, n° 258- 259, 1983, P. 30.

[64]- الزمرلي (الصادق)،" الشيخ الطيب رضوان...**نفس** المرجع. مع العلم أنّ الطيب رضوان لم يخلّف من زوجته الوحيدة سوى بنتا واحدة توفيت في سنّ مبكّرة.

[65] - Abdelhac (pseudonyme de Chadly Khalladi), « Si Taïeb Radhouane…*op. cit.*, p. 72.

- منح الأملاك الحضريّة وأملاكه بغابة الساحل إلى ابني أخته.
- تكليف فنيين مختصين في العمل الفلاحي بإدارة الضيعات الحبوبيّة، وتخصيص مداخيلها لتمويل صندوق مهمّته منح قروض متيّسرة الدفع لفائدة الفلاحة والفلاحين.
- تحبيس الضيعات الريفيّة الثلاثة الكبرى، وتكليف مجموعة من أصدقائه بتسييرها.

وكان ينوي تخصيص مداخيل القروض المستخلصة، وكذلك مداخيل الضيعات المحبّسة، لمساعدة الشبان المبتدئين على تركيز مشاريعهم الفلاحيّة، والمساهمة في شراء الآلات والبذور لفائدة أصحاب المشاريع المتوسطة، وتشجيع الحرفيين في المراكز الريفيّة على إقامة ورشات مختصة في الحدادة واللحام والميكانيك، وأخيرا التكفّل بتقديم المنح الشرفيّة لطلبة المدارس والمعاهد الفلاحية وتوفير القروض الداعمة للباحثين في مجال الصناعات الفلاحية. إلّا أنّ هذا البرنامج الواعد والطموح، الذي كان يعتزم اختيار أحد أصدقائه المقرّبين للإشراف على تطبيقه، لم ير النور.[66]

وقد وجدنا في وثائق إدارة بيت المال ما يؤيّد شهادة الشاذلي الخلادي بخصوص اعتزام الطيب رضوان القيام بمشروع خيري موجّه بالأساس "لفائدة الطلبة التونسيين الذين يزاولون تعليم الفنون المستظرفة سواء كانوا بتونس المحروسة أو خارجها"، إلّا أنّ هذا المشروع تعطّل نتيجة خلافه المستمر مع ابني أخته اللذين خطّطا للانتفاع بكامل التركة، وهو ما حصل بالفعل في مرحلة أولى.[67]

2- التحبيس والوصيّة بكامل التركة لفائدة الورثة:

قام الطيب رضوان يوم 25 فيفري 1954 بتحبيس جميع أملاكه على نفسه أوّلا ثمّ على الأخوين الهادي وحمادي الزبيدي ابني أخته الوحيدة، وقام في نفس اليوم بكتابة وصيّة

[66] - *Ibid.*

[67]- **أ. و. ت.**، س. D 1، م. 168...**نفس المصدر**، تقرير من إدارة بيت المال إلى المحامي عمار الدخلاوي بتاريخ 2 ديسمبر 1954.

بكامل تركته لفائدتهما أيضا، وذلك بحضور عدلي إشهاد ولجنة من الأطباء يشرف عليها الحكيم عبد الرحمان مامي.[68]

توفي الطيب رضوان يوم غرّة مارس 1954 أي بعد أربعة أيّام فقط من تحرير عقدي التحبيس والوصيّة، فقامت إدارة بيت المال بتقديم نازلة شرعيّة لدى الدائرة المالكيّة تطلب بأحقيّة بيت المال في الانتفاع بكامل التركة بوصفه عاصبا على مقتضى المذهب المالكي الجاري به العمل في باب الميراث آنذاك، والذي لا يبيح توريث ذوي الأرحام. واستندت إدارة بيت المال أيضا إلى بعض النصوص الفقهيّة، التي ترى أنّ التحبيس في حال المرض فيه مشكلة وللوارث الحقّ في مناقشته، وحجّتها في ذلك أنّ الهالك غادر المصحّة يوم 19 فيفري 1954 في حالة صحيّة حرجة جدّا بشهادة الأطبّاء. وشكّكت أيضا في صحّة الوصيّة لأنّها حرّرت بعد التحبيس بنصف ساعة فقط، استنادا إلى القاعدة الفقهيّة التي تقول إنّ الشخص لا يوصي بشيء من كسبه إلّا إذا كان مالكا للرقبة، في حين أنّ التحبيس صيّر المالك مالكا للمنفعة فقط.[69]

وتحصلت بموجب كلّ ذلك على إذن شرعي في ضبط المخلّف، ولكنّ ابني عمر الزبيدي رفضا ذلك والتجآ إلى الطاهر الأخضر وزير العدليّة في حكومة محمد الصالح مزالي، فساعدهما في الحصول على معروض عليّ بتاريخ 11 مارس 1954 يأذن بجعل إرث الطيب رضوان على المذهب الحنفي.[70] ويتيح هذا المذهب الوصيّة بكامل التركة لمن لا وارث له، كما أنّ التحبيس على النفس ثمّ على الغير يعتبر صحيحا في نظر هذا المذهب. وعدل بيت المال، بعد صدور معروض 11 مارس عن قضيّة استحقاق الإرث، في حين تحوّز الموصى لهما والمحبّس عليهما كامل التركة بين عقار ومنقول.[71]

شرع الأخوان الزبيدي في التصرّف في إرث خالهما، وخيّرا تجديد العقود المبرمة مع المهندس عبد الحميد بن عيسى، الذي واصل إدارة ضيعات سماية والهري والعريمة

---

[68]- **المصدر نفسه والوثيقة ذاتها.**
[69]- **المصدر نفسه**، تقرير من عبد الوهاب شويخة إلى مدير مصلحة أملاك الدولة (من دون تاريخ).
[70]- **المصدر نفسه**، مراسلة من الطاهر الأخضر وزير العدليّة إلى السيد أحمد السبسي آغة بيت المال بتاريخ 15 مارس 1954.
[71]- **المصدر نفسه**، تقرير الطيب الميلادي محامي آل الزبيدي بتاريخ 6 ديسمبر 1957.

وغيرها مع الترفيع في المقدار السنوي للكراء.[72] وتواصل هذا الأمر إلى شهر جويلية من سنة 1957 تاريخ استيلاء الدولة التونسيّة على كامل مخلّف الطيب رضوان.

3- النزاع بين الورثة السابقين وإدارة أملاك الدولة حول تركة الطيب رضوان:

أصدر محمد الأمين باي يوم 11 جويلية 1957 أمرا عليّا حمل إمضاء الحبيب بورقيبة الوزير الأكبر ورئيس الحكومة آنذاك، يقضي بإلغاء معروض 11 مارس 1954 الذي لم يطبق "أحكام المذهب المالكي المتّبع من قديم الأزمان في المواريث"، والتفويت في كامل الأملاك المنقولة والعقاريّة الراجعة لإرث الطيب بن مصطفى رضوان لفائدة صندوق الدولة الذي حلّ محلّ بيت المال بمقتضى أحكام مجلة الأحوال الشخصيّة.[73]

أصبح كامل مخلّف رضوان بموجب هذا الأمر ملكا خاصا من أملاك الدولة، وشرعت في التصرّف فيه سواء بالتسويغ لنفس المتصرّف السابق عبد الحميد بن عيسى أو بالتفويت لجهات عديدة مثل بلديّة المرسى وديوان إحياء أراضي وادي مجردة وغيرها. ودخلت إدارة أملاك الدولة التي حلّت محلّ صندوق الدولة في نزاع قانوني معقّد وطويل الأمد مع آل الزبيدي. وتركّز الجدل حول الموجب القانوني لتصرّف الورثة في التركة: هل كان بموجب الإرث على المذهب الحنفي الذي سوّغه معروض 11 مارس؟ أو بموجب التحبيس والوصيّة؟ وانحصر النزاع بعد ذلك في صحّة الحبس من عدمه، وفي مدى أهليّة المحبّس للقيام بالتحبيس، وبالتّالي في استحقاق المدّعين للتركة.

بيّن الطيب الميلادي محامي الورثة أنّ منوّبيه لم يدرجا المعروض في الرسوم العقاريّة، وبالتّالي فقد استندا في حوزهما وتصرّفهما على التحبيس والوصيّة. ورأى أنّ أمر 11 جويلية قصد في جوهره إلغاء التوارث على مقتضى المذهب الحنفي، ولم ينسخ الوصيّة والتحبيس، وهو ينطبق على الإرث الذي خلّفه الطيب رضوان عند وفاته، والحال أنّه لم يخلّف شيئا بما أنّه أوصى بجميع أملاكه لحفيديه من الأخت قبل وفاته.[74] وبيّن كاتب الدولة للماليّة من ناحيته أنّ الوريثين تصرّفا على أساس المعروض وتعمّدا في البداية

---

[72]- **المصدر نفسه**، تقرير عبد الوهاب شويخة المشار إليه سابقا.
[73]- **الرائد الرسمي التونسي**، عدد 55 و56، 9 و12 جويلية 1957، ص. 1105.
[74]- **أ. و. ت.**، س. D 1، تقرير الطيب الميلادي...**نفس المصدر**.

إخفاء وثيقتي التحبيس والوصيّة ممّا يوحي بوجود شبهة تدليس، وشكّك في صحّة التحبيس الذي لا يكون صحيحا إلّا إذا صدر فيه حكم من الدائرة القضائيّة المختصة، وكذلك في الوصيّة لأنّها جاءت مباشرة بعد التحبيس، كما بيّن أنّ المحبّس كان في مرض الموت وغادر المصحّة وهو شبه عاجز عن الكلام حسب شهادة الأطبّاء.[75]

تواصل النزاع والتقاضي بين الطرفين حوالي 30 سنة مرّ خلالها بعدّة تقلّبات مثيرة يمكن حوصلتها كالآتي:

- رفع آل الزبيدي في البداية قضيّة حوزيّة ضدّ مصلحة أملاك الدولة لرفع يدها عن أملاكهم المنجرّة لهم بوجه الحبسيّة، وتمّ رفض هذه الدعوى ابتدائيّا (ماي 1959). وحكمت محكمة الاستئناف لفائدتهم باستحقاق ثلث المخلّف (أفريل 1961)، إلّا أنّ محكمة التعقيب نقضت هذا الحكم من دون إحالة لأنّ القضيّة كانت في الأصل في كفّ شغب في حين قضت المحكمة في قضيّة استحقاق (ماي 1963).[76]

- تقدّم الورثة في مارس 1964 بقضيّة جديدة طالبوا فيها باستحقاق كامل المخلّف استنادا إلى رسمي الحبس والوصيّة، في حين طعن الخصوم في هاتين الوثيقتين ورفعوا قضيّة جزائيّة اتّهموا فيها عائلة الزبيدي بالتدليس (1965).

- حقّق آل الزبيدي بعض المكاسب حيث استرجعوا أموالهم المعقولة لدى البنوك والمتأتيّة من صابة موسم 1956- 1957 بعد نزاع استمرّ من ماي 1961 إلى مارس 1967، وتمّ حفظ القضيّة الجزائيّة المتعلّقة بالتدليس (نوفمبر 1967).[77]

- حصل التحوّل الأبرز في أواخر جويلية 1968 بصدور حكم مدني نصّ على صحّة الحبس، وعلى كونه صدر في مرض الموت ممّا يجعله موجّها لحرمان الوارث الأصلي أي إدارة أملاك الدولة ودافعا لاعتباره ينطبق على ثلث المخلّف، وهو المقدار الذي خوّل المشرّع للمريض التصرّف فيه قبل وفاته والتبرّع به لمن يشاء باستثناء الورثة. ورأت المحكمة إخراج الحبس مخرج الوصيّة واعتباره عاملا في الثلث فقط، ويعنى ذلك اعتبار

[75]- **المصدر نفسه**، تقرير من الهادي نويرة كاتب الدولة للماليّة إلى الباهي الأدغم كاتب الدولة للرئاسة بتاريخ فيفري 1957.
[76]- **المصدر نفسه**، نص الحكم المدني الصادر عن المحكمة الابتدائية بتونس بتاريخ 27 جويلية 1968.
[77]- **المصدر نفسه**، حكم استئنافي يتاريخ 28 مارس 1967.

المدّعين مستحقين لثلث التركة على الشياع بينهم واعتبار إدارة أملاك الدولة مستحقة للثلثين الباقيين بصفتها الوارث الشرعي للطيب رضوان.[78]

- أقرت محكمة الاستئناف هذا الحكم ونقضته محكمة التعقيب لعدم استيفاء بعض الإجراءات الشكليّة، فتقدّم الورثة بقضيّة استحقاقيّة جديدة صدر فيها نفس الحكم الابتدائي السابق (جويلية 1973).

- أصبحت إدارة أملاك الدولة تسعى منذ منتصف السبعينات إلى الصلح مع الورثة من آل الزبيدي بعد أن تفطنت إلى وجود ثغرة قانونيّة تعمل ضدّها ولكن لم يتفطن إليها محامو الخصم أو تجاهلوها عن قصد ربّما، وتتمثّل في الفصل 188 من مجلة الأحوال الشخصية الذي ينصّ على ما يلي: "من لا دين عليه ولا وارث تنفذ وصيّته ولو بكلّ ماله بدون توقّف على ميراث صندوق الدولة". وتعقّدت القضيّة بظهور مدّعين جدد طالبوا بنصيبهم من التركة، فقرّرت الإدارة تفويض المسألة إلى الوزير الأوّل الهادي نويرة الذي وافق على تفعيل الحلّ الصلحي.[79]

- التجأ آل الزبيدي بعد ذلك إلى المحكمة الإدارية للمطالبة باستحقاق كامل التركة، أمّا إدارة أملاك الدولة فاستأنفت الحكم لدى المحاكم العدليّة ثمّ تخلت عن هذا الإجراء بعد استشارة المحكمة الإداريّة التي نصحت الخصوم بالجنوح إلى الصلح (1979).[80] وتردّد الورثة في البداية ثمّ قبلوا بالأمر الواقع سنة 1984، ودخلوا في مفاوضات تواصلت إلى حدود سنة 1989 حول إجراءات تقسيم التركة وحصر منابهم الذي حدّد بثلث ما خلّفه الطيب رضوان.[81]

---

[78]- **المصدر نفسه**، نص الحكم المدني الصادر عن المحكمة الابتدائية بتونس بتاريخ 27 جويلية 1968.

[79]- **المصدر نفسه**، ردّ الوزير الأوّل الهادي نويرة على مذكّرة وزير الماليّة محمد الفيتوري بتاريخ 17 ماي 1977.

[80]- **المصدر نفسه**، تقرير المكلّف العام بنزاعات الدولة إلى وزير المالية بتاريخ 4 أكتوبر 1979.

[81]- **المصدر نفسه**، مذكرة بتاريخ 8 مارس 1984.

الخاتمة:

لعلّ أبرز مزايا هذه المقاربة تكمن في كونها ساعدتنا على التحرّر من البيوغرافيا الخطيّة المغالية في الكرونولوجيا، وكذلك من البيوغرافيا النمطيّة أو الموجّهة التي تركّز على المواصفات العامّة التي تجعل من الفرد أنموذجا ممثّلا لمجموعة أوسع. وقد أمكن لنا من خلال اعتماد هذه المقاربة البيوغرافيّة غير النمطيّة إضافة بعد زمني جديد نراه أساسيّا لفهم مسار الطيب رضوان، وهذا البعد الزمني الجديد يمكن أن نسمّيه الزمن الميتابيولوجي لأنّ الزمن البيوغرافي لا يتطابق بالضرورة مع الزمن البيولوجي (من المهد إلى اللّحد) كما أشار إلى ذلك جاك لوغوف في مقدّمة بيوغرافيا "سان لويس".[82]

وتبيّن لنا من خلال هذه الدراسة أنّ ثروة الطيب رضوان أو مكانته الماديّة هي المحدّدة في نهاية المطاف لمختلف خياراته والمشكّلة لملامح شخصيّته والمؤثّرة في مساره، بل إنّ تأثيرها في محيطه تواصل حتّى بعد وفاته بسنوات طويلة. ولا ينفي ذلك دور العوامل الثقافيّة التي كان لها تأثير بارز في حياة هذا الرجل الذي لم يصنع نفسه من العدم، ونعني بذلك انتماءه إلى عائلة علماء استمدّت مكانتها ووجاهتها من تحالفها مع المخزن الحسيني في مرحلة أولى، ثمّ من مراهنتها على الفلاحة العصريّة في مرحلة ثانية.

ونشير في الأخير إلى أهميّة الصورة التي حاولنا إبرازها حول هذا الزيتوني المستنير الذي امتلك حسّا مدنيّا سابقا لعصره، وهي صورة راعي العلم ونصير الطلبة، ولا ننسى أنّ أيّة نهضة ثقافيّة تحتاج إلى رعاة Mécénes يتكفّلون بتمويلها ومناصرتها، وهو دور مهمّ قام به الطيب رضوان وغيره خلال الفترة الاستعماريّة لا يقلّ قيمة في نظرنا عن الدور الذي قام به هذا "الفلّاح الكيّس" Gentleman-farmer، كما لقّبه دانيال غلدشتاين، في تطوير الفلاحة التونسيّة.[83]

---

[82] - Le Goff (J), *Saint Louis*, Editions Gallimard, Paris, 1996.

[83] - Goldstein (Daniel), *Libération ou annexion. Aux chemins croisés de l’histoire tunisienne (1914-1922)*, MTE, Tunis, 1978, p. 326.